الخطبة التاسعة والستون
سويداء قلبك

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

لا بد لكل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله من أن تتضح له أمور، وتكون واضحة له وضوح الشمس، وهذه الأمور نقولها بألسنتنا ونكررها مراراً، ولكن هل مدلولاتها واضحة؟ وهل نعيها وعياً تاماً؟ دعني أبدأ بإذن الله، وعليك يا قارئي الكريم الحكم:

1. **قولنا: إنا لله وإنا إليه راجعون:** كلنا يقولها، وكلنا يعتقد أننا نفهمها ونعي مدلول هذه الجملة، ولكن (إنا لله) أي: إننا وما نملك من مال وعمل وأهل وزوجة وأولاد ومناصب وقوة ومعارف وسلطة، كلنا بما فينا وما نحن عليه، بدايتنا وشبابنا ورجولتنا وكهولتنا وآباؤنا وكل ما نحويه (إنا لله). وكلنا هذه التي في (إنا)، كلها مرجعها إلى الله، كنا لا شيء، وصرنا بأمر الله، ونعود لا شيء بأمر الله، كلنا نموت، وكلنا نعود إلى التراب، وكلنا نؤمن بهذا، وكلنا ندرك هذا، جئنا بلا شيء، ونذهب بلا شيء، نترك وراءنا كل العلم وكل القوة وكل السطوة وكل الامتيازات التي حققناها، ونرجع حتى بلا اسم، تقول: أين الجثة؟ وأين تدفن الجثة؟ وحتى تدفن الجثة، لا لقب ولا اسم ولا امتياز ولا شيء. من أحيانا؟ الله. من أماتنا؟ الله، بين الحياة والموت ما الذي حصّلناه؟ كله من الله ومن فضله وكرمه هذه حقيقة، الكل يقولها والكل يجب أن يدركها، فمالك وعائلتك وشهاداتك وقوتك وسلطتك وحياتك وموتك وأولادك وآباؤك، كله من الله تعالى، فمن قال: عملي وولَدي وجهدي

وذكائي ودراستي فهذا ما أعطى الله حقه، لأنه لولا الله لما كنت، ولا كان لك شيء ولا حصّلْتَ شيء، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: 76/ 1-3].

لو أسكنك إنسان في بيته سنوات عدة، هل يصبح هذا البيت بيتك؟ الجواب: لا، لأن البيت بيته وأسكنك إياه فضلاً وكرماً منه، لكن بعض الناس قد ينسى ولأنه اعتاد عليه، وإذا طالبك به صاحبه وأخذ البيت منك فإنك تنزعج وتتألم، لكن في قرارة نفسك تعرف أن البيت ليس لك، وإذا ادعيت أن البيت بيتك تكون كاذباً وظالماً ومفترياً. وكذلك الحال مع الله تعالى ولله المثل الأعلى، هو الذي أعطاك كل شيء، وهو الذي منّ عليك بكل شيء، فعندما يأخذ منك فإنما هو يسترد منك ما أعطاك إياه، وما تفضل به عليك. قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 57/ 7]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: 30/ 40].

2. **نحنُ عبيدٌ خِلْقَةً**: هذه خلقتنا شئنا أم أبينا، نحن عبيد، نحن بحاجة إلى شيء نعبده، هذا هو تكويننا، فإما أن نعبد الله، الله الذي أوجدنا وخلقنا وقدّر لنا المقادير أو أننا نعبد غيره، لا بد أن نكون عبيداً، فالذي لا يعبد الله، لا بد أن يعبد شيئاً آخر، يعبد الدنيا، يعبد المال، يعبد المناصب، القوة، الشهوات، المراكز، يعبد هواه ونفسه وشهواته، نحن خُلقنا وهناك مركز في قلوبنا لا بد أن نملأه بإله. فهذا الإله إما أن يكون الله تعالى أو يكون غيره، وإذا ملأت هذه الفجوة القلبية بغير الله تعالى؛ فحياتك كلها مضطربة وتعيسة وغير مستقيمة وغير مطمئنة. هذه الفجوة القلبية تحتاج إلى من يحميها، ومن تتوكل عليه ومن تلجأ إليه، ومن تدعوه وتسأله وتتضرع إليه، هذه الفجوة بحاجة إلى حكيم رحيم عليم ودود قادر مالك واهب

لطيف، تناجيه تدعوه تتوسل إليه، تعتمد عليه، وهذه صفات الإله المشرع الذي شرّع لنا ما تستقيم به حياتنا جسداً وروحاً، وهذا ما قاله لنا ربنا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 20/ 124]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: 27/ 62]

3. **قال تعالى:** ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: 2/ 165]، قد نقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وقد نقول: إننا نحب الله تعالى أكثر من أي شيء، ولكن الواقع الذي نعيشه يُكذّب هذا الادعاء، إذا تعارضت معنا مصلحة دنيوية مع شرع الله فما الذي نفضله؟ تنام ولا تقوم إلى صلاة الفجر، حب النوم والراحة مقدم على حب الله تعالى. إذا رأيت ربحاً مادياً ولا بد لك من الاقتراض الربوي فماذا تفعل؟ إذا تعرضت للتنازل عن مبدأ من مبادئ دينك في سبيل وظيفتك أو مركزك أو سمعتك، أو في سبيل الحصول على مكسب مادي أو دنيوي، فهل تتنازل وتقول: إنها ضرورة؟! نقول شيئاً ونفعل شيئاً. هذا الذي نفعله هو الذي يملأ هذه الفجوة القلبية والتي هي مُعَدّة ومخصصة لله تعالى فقط، ما هو الشيء الذي تفكر فيه عند استيقاظك من النوم؟ ما الذي تفكر فيه عندما تريد أن تنام؟ ما هو الذي يَشغل حيزاً كبيراً من تفكيرك؟ هذا الشيء هو الذي في هذه الفجوة القلبية، ملأتها بغير الله، وشغلتها بغير الله، قد يكون أولادك أو زوجتك أو مالك أو منصبك أو شهاداتك أو أو ...، أنت في تعاسة و شقاء وأنت عبد لهذه الأشياء التي وضعتها في فجوة قلبك، أنا عبد، هذه خلقتي وكينونتي، ومعنى هذا أن هذه الفجوة لله فقط، فهو خالقي ورازقي وهو مُحييّ وهو مميتي وأنا لله ومنه وإليه، وأنا عبد، ويجب أن يكون مركز قلبي ومركز حياتي ومحور معيشتي ومحور وجودي (**لا إله إلا الله محمد رسول الله**).

4. قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: 26/ 88-89]، (القلب السليم): هو الذي يفيد صاحبه يوم القيامة، فما هو تعريفه؟

قالوا: القلب السليم الذي سَلِمَ من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه. وقالوا: من سَلِمَ من عبودية ما سواه وسَلِمَ من تحكيم غير رسول الله ﷺ، وقالوا: سَلِمَ بحبه له ولرسوله وتحكيم شرع الله وسنة رسوله، وقالوا: القلب السليم الذي امتلأ حباً وخوفاً وتوكلاً وتضرعاً وإنابة وذلاً وإيثاراً لما يحبه الله ويرضاه. (القلب السليم): هو القلب الذي ملئت فيه هذه الفجوة القلبية بحب الله وحب رسوله وحب شرعه ومرضاته، وكان هذا هو مركز حياته، بمعنى آخر (القلب السليم): هو القلب الذي يدور ويعيش ويبحث عن مرضاة الله سبحانه ويتحرى تطبيق شرعه، (القلب السليم): الذي يصحو صاحبه على ذكر الله، وينام على ذكر الله وبين اليقظة والمنام يعيش بذكر الله وبشرع الله ومحبة ما يحبه الله ويرضاه ويحبه رسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، يحب ويكره، ويعطي ويمنع، ويتكلم ويسكت، ويفعل ولا يفعل، في دائرة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 6/ 162-163]. لماذا؟ لأنه لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. لماذا؟ لأني لا أتخذ أنداداً من دون الله، والأنداد قد تكون: الأولاد والزوجة والمنصب والعمل والقوة وأي شيء إلى جانب الله تعالى. لماذا؟ لأني عبدٌ لله هو الذي خلقني وأوجدني ورزقني وشق سمعي وبصري وجعلني أتنفس وأنبض، وما أعطانيه بلحظة يأخذه بلحظة. لماذا؟ لأننا لله وإنا إليه راجعون. وهذه حقيقة لا يناقش فيها مسلم ولا كافر، كلنا من تراب ونعيش على تراب ومآلنا إلى تراب، بأمره تعالى.

5. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 9/ 24]، هل يعيب علينا ربنا أو يعاقبنا إذا أحببنا آبائنا وهم الأصول؟ أو أبنائنا وهم الفروع؟ أو إخواننا أو أزواجنا أو عشيرتنا من أعمام وأخوال وأولادهم؟ أم أنه لا يرضى لنا العمل وتجميع الأموال، أو البيوت الفارهة؟ ماذا يعيب علينا ربنا؟ إن كل

ما ذكرته الآية هو حلال وطيب وربنا لا يعيب علينا شيئًا من محبة كل الذي ذُكِر، ولكن المشكلة يعيب علينا ربنا ويعاتبنا إذا كانت هذه الأشياء الثمانية أحبَّ إلينا من الله ورسوله والجهاد في سبيله. الأولويات التي يريدها ربنا: أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله هو محور حياتنا، ومركز قلوبنا، وأن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله هو ما يملأُ فجوة قلوبنا المخصصة لله ولله فقط، أما إذا آثرنا وفضلنا الآباء والأولاد والأموال وكانت هذه هي الفجوة القلبية، وكان الآباء والأولاد والأموال محور حياتنا ومركز نفوسنا وقلوبنا قبل الله ورسوله والجهاد في سبيله فهذه هي المشكلة وهذا هو الذي يعيبه علينا ربنا وهذا هو الفسق بعينه، لذلك أنهى الله تعالى به الآية -والله أعلم- فالذي يريده الله تعالى أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله هو الأساس، وهو المحور الذي تدور عليه حياتنا ثم بعد ذلك الآباء والأبناء والزوجات والأموال وحلال كلها ولا غبار عليها، ولكن: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 2/ 165]، ويحذرنا ربنا أن تكون الأموال والأولاد هي المرتبة الأولى في حياتنا، وهي مركز قلوبنا ومحور حياتنا بقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: 63/ 9].

6. قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: 3/ 142]، الابتلاء والامتحان سنة الله في خلقه ... لا بد من الابتلاء، لا بد. قال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤﴾ [العنكبوت: 29/ 4]، فالقضية ليست ادعاءً ولا قولاً يقال، ولكن قول وشهادة وإيمان ويقين وعمل وسلوك يدوم دوام الحياة كلها. وكل منا لا بد له من المجاهدة حتى يبرهن عن قوله وشهادته، فالشهوات كثيرة والدنيا مزخرفة قوية، أين جهادك في مقاومة المال الحرام، والمنصب الحرام والقول الحرام؟ أين مجاهدتك في غض بصرك وفي حصانة فرجك؟ أين جهادك في المطعم الحلال، والملبس

الحلال والمسكن الحلال؟ لا بد من المجاهدة لأنك لله ومن الله وإلى الله، خلقك ورزقك ويحييك ويميتك وإليه المصير، وهذا تحقيق: **(إنا لله وإنا إليه راجعون)**، وسوف يسألنا ويحاسبنا فإما إلى جنة وإما إلى نار. لا بد من المجاهدة لأني أحب الله ورسوله وجهاد في سبيله. لا بد من المجاهدة لأني أرغب أن آتي الله تعالى بقلب سليم، القلب الذي يدور ويعيش وينبض بلا إله إلا الله، لا معبود إلا الله، ولا مُشرع إلا الله، ولا طاعة إلا لله، ولا محبة إلا لله، ولا بغض إلا لما يبغضه الله ورسوله. لا بد من المجاهدة حتى يرى الله مني ما يرضيه سبحانه وتعالى.

7. **لا بد من الصلاة وقراءة القرآن، وذكر الله تعالى**: فهذه أمور ثلاثة لا بد منها لأنها حياة القلب، لأنها الشحنة التي تمد القلب بالقوة وتعينه على الصبر والمثابرة في سبيل تحقيق لا إله إلا الله محمد رسول الله ... لا بد من الدعاء والذكر والالتجاء إلى الله تعالى حتى لا نقع. اعتمادنا على ربنا، تعلقنا بربنا، رجاؤنا بربنا، توكُلُنا على ربنا، قال ﷺ: «أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله، عليك بتلاوة القرآن وذكر الله، فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض، عليك بطول الصمت إلا من خير، فإنه مطردة للشيطان عنك، وعون لك على أمر دينك، إياك وكثرة الضحك! فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه، عليك بالجهاد، فإنه رهبانية أمتي، أحب المساكين وجالسهم، انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك فإنه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عليك، قل الحق وإن كان مُرّاً، لا تخف في الله لومة لائم، ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك، ولا تجد عليهم فيما تأتي، وكفى بالمرء عيباً أن يكون فيه ثلاث خصال: أن يعرف من الناس ما يجهل من نفسه، ويستحي لهم مما هو فيه، ويؤذي جليسه، يا أبا ذر! لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق» عبد بن حميد في تفسيره، طب عن أبي ذر.

كان عليه الصلاة والسلام يتعوذ بقوله: «اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء، ودَرَكِ الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء» البخاري (6347) - مسلم (2707)، (من جهد البلاء) أي: من شدة البلاء ومشقته، والذي ما لا طاقة لي به، كالأمراض والمصائب والضعف والشهوة والأذى، (دَرَكِ الشقاء): الهلاك وما يؤدي إليه من هلكة في الأموال والأنفس والثمرات، وفي آخرتي مما اقترفته من الذنوب والآثام، (سوء القضاء): كل ما يسوء الإنسان ويحزنه وهو شامل في الدين والدنيا، والقضاء يكون خيراً وشراً، فالدعاء بالوقاية من شر القضاء مشروع ومندوب لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يُرَدُّ القدر إلا بالدعاء» حم - الترمذي - حديث حسن.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة» صحيح الجامع، وقوله عليه الصلاة والسلام: «فعليكم عباد الله بالدعاء» الحاكم، (شماتة الأعداء): نتعوذ من المكروهات حتى لا يفرح الأعداء بما نزل بنا، وحتى لا يظنوا أنهم على حق وأننا على باطل والعياذ بالله. وعن عقبة بن عامر: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ (أي: كيف أنجو؟) فقال عليه الصلاة والسلام: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابْكِ على خطيئتك» الترمذي، (أمسك عليك لسانك): دليل على سلامة قلبك من الخوض في الحرام، أيّاً كان شركاً أو غيبة أو نميمة أو فيما لا يفيد. (ليسعك بيتك): وهو الرضا بما قسمه الله تعالى لك من الرزق، وهو دليل الإيمان القلبي، (ابكِ على خطيئتك) أي: اشتغل بإصلاح نفسك والاستغفار والتوبة مما قدمت وفعلت، وهذا دليل المراقبة لله تعالى والخوف منه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه